محمد ﷺ الصديق

عطوف ودود

إذا كان الرجل محباً ، أهلاً لحبهم إياه ، فقد تمت له أداة الصداقة من طرفيها إنما تتم للنبي ﷺ أداة الصداقة بمقدار ما رزق من سعة العاطفة الإنسانية ، ومن سلامة الذوق ، ومتانة الخلق . وطبيعة الوفاء .

فلا يكفي أن يحب الناس لحبوه ؛ لأنه قد يحبهم وفي ذوقه نقص بنفرهم منه ويزهدهم في حبه .

ولا يكفي أن يكون محباً سليم الذوق ليبلغ من الصداقة مبلغها فقد يكون محباً محبوباً حسن الذوق ثم يكون نصيبه من الخلق المتين والطبع الوفي قليلاً ضعيفاً لا تدوم عليه صداقة ، ولا تستقر عليه علاقة . إنما تتم أداة الصداقة بالعاطفة الحية ، والذوق السليم ، والخلق المتين . وقد كان محمد ﷺ في هذه الصفات جميعاً مثلاً عالياً بين صفوة خلق الله .

كان عطوفاً يود من حوله ويداوم على مودتهم طول حياته رغم تفاوت ما بينه وبينهم في السن والأصل والمنزلة .

كان صبياً في الثانية عشرة يوم سافر عمه ، فتعلق به حتى أشفق العم أن يتركه وحده فاصطحبه في سفره .

وكان شيخاً قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء [1] .

ولا ينسى وليس في سجل المودة الإنسانية أجمل ولا أكرم من حنانه ﷺ على مرضعته " حليمة " ومن حفاوته بها وقد جاوز الأربعين ، فيلقاها هتافاً بها : أمي .. أمي ! ويفرش لها رداءه ويمس ثديها بيده . [2]

كأنه يذكر ما لذلك الثدي عليه من جميل ، ويعطيها كن الإبل والشاء ما يغنيها في السنة الجدباء . [3]

ولقد وفدت عليه قبيلة هوازن وهي مهزومة في وقعة حنين وفيها عم له من الرضاعة .. لأجل هذا العم من الرضاعة تشفع النبي ﷺ إلى المسلمين أن يردوا السبي (الأسرى) من نساء وأبناء ، واشترى السبي ممن أبوا رده إلا بمال . [4]

---

(1) زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ فَقَالَ " اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي في أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ " [صحيح مسلم]

(2) لم أقف على هذا الكلام في أثر صحيح من كتب الحديث أو السيرة إلا في مسند البزار عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْسِمُ لَحْمًا بِالْجِعْرَانَةِ فَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ بَدْوِيَّةٌ فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَذِهِ ؟ قَالُوا : هَذِهِ أُمُّهُ الَّتِي كَانَتْ تُرْضِعُهُ. [مسند البزار] أما كلام العقاد عن أن النبي ﷺ كان يمس ثدي السيدة حليمة فهذا باطل لا أصل له والعجيب أن أحد الأشخاص كتب مقالاً بعنوان " للمرأة عورة واحدة .. وكفى " ولم يجد أي أثر إسلامي يستشهد به إلا كلام العقاد هذا الذي عقَّب عليه بقوله : " إذن، فثدي المرأة ليس عورة، وإلا لما أظهرته السيدة العذراء، ولما مسه النبي محمد أمام الناس، ومن حقّها أن تظهره، إذا أرادت أن تظهره " !!

أما ادعاء العقاد أن النبي ﷺ قال لحليمة : أمي ! أمي ! فهذا لا يصح إنما ورد قوله " أم أيمن أمي بعد أمي " (حديث ضعيف رواه ابن عساكر)

(3) قال أبو الفرج بن الجوزي في الحدائق : قدمت حليمة ابنة الحارث على النبي ﷺ بعدما تزوج خديجة فشكت إليه جذب البلاد فكلم خديجة فأعطتها أربعين شاة وبعيراً .

(4) الذي كان في سبي غزوة حنين الشيماء بنت حليمة السعدية أخت الرسول في الرضاعة وليس عم له في الرضاعة كما زعم العقاد قال ابن حزم في جوامع السيرة : " وكان عدد سبي هوازن ستة آلاف إنسان، منهم الشيماء أخت النبي ﷺ من الرضاعة، وهي بنت الحارث بن عبد العزى، من بني سعد بن بكر بن هوازن، فأكرمها رسول الله ﷺ، وأعطاها وأحسن إليها، ورجعت إلى بلادها مختارة لذلك." ج ١ ص ٢٤٥ .

وحضنته في طفولته جارية عجماء (غير عربية) [1] فلم ينس لها مودتها بقية حياته، وشغله أن تنعم بالحياة الزوجية ما يشغل الأب من أمر بناته ورحمه ، فقال لأصحابه: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَلْيَتَزَوَّجْ أُم أَيْمَنٍ " [حديث مرسل ضعيف رواه ابن سعد عن سفيان بن عقبة]

وما زال يناديها يا أمة كلما رآها وتحدث إليها [2]، وربما رآها في وقعة قتال تدعو الله وهي لا تدري كيف تدعو بلهجتها غير العربية ، فلا تنسيه المعركة أن يصغي إليها ويعطف عليها . [3]

وكان هذا عطفه على كل ضعيف ولو لم يُذَكِّره بحنان الطفولة ورحم الرضاع، فما نَهَر خادماً ولا ضرب أحداً ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي : أُفٍّ ، قَطُّ ، وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ : لِمَ صَنَعْتَهُ ؟ وَلا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: لِمَ تَرَكْتَهُ ؟" [صحيح مسلم] وكان من أضحك الناس [4] وأطيبهم نفساً ،

---

(1) أم أيمن هي أم أسامة بن زيد أنها كانت وصيفة لعبد الله بن عبد المطلب وكانت من الحبشة ، فلما ولدت آمنة رسول الله ﷺ بعد ما توفي أبوه ، فكانت أم أيمن تحضنه حتى كبر رسول الله ﷺ أعتقها النبي ﷺ حين تزوج خديجة فتزوجها عبيد بن يزيد من بني الحارث بن الخزرج فولدت له أيمن فقتل يوم خيبر شهيداً وكان زيد بن حارثة لخديجة فوهبته لرسول الله ﷺ فأعتقه رسول الله ﷺ وزوجه أم أيمن بعد النبوة فولدت له أسامة بن زيد .

(2) لم يكن النبي ﷺ يقول لأم أيمن يا أمي كلما رآها كما زعم العقاد إنما كل ما ورد في هذا قوله: " أم أيمن أمي بعد أمي " (حديث ضعيف رواه ابن عساكر)

(3) قالت أم أيمن يوم حنين : " ثبت الله أقدامكم " فقال النبي ﷺ : " اسكتى يا أم أيمن فإنك عسراء اللسان . [أخرجه ابن سعد (٨/٢٢٥)] .

(4) لم يكن النبي ﷺ كثير الضحك كما زعم العقاد فقد صحَّ عن النبي ﷺ قوله : " أَقِلَّ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ " [صحيح البيهقي] .

وكان من صفاته " إِذَا غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ ، وَإِذَا فَرِحَ غَضَّ طَرْفَهُ ، جُلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ ، وَيَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الْغَمَامِ." [رواه البيهقي]

صافي القلب إذا كره شيئاً رئي ذلك في وجهه [1] وإذا رضي عرف من حوله رضاه . وقد اتسع عطفه حتى شمل الأحياء جميعاً ولم يقصره على ذوي الرحم من الناس ، فكان يميل الإناء للهرة لتشرب [2] وكان يواسي في موت طائر يلهو به أخو خادمه ، وأوصى المسلمين :" إذا رَكِبْتُمْ هذِهِ الدَّوابَّ فأعْطُوها حَظَّها مِنَ المنازِلِ ولا تَكُونُوا عليها شياطينَ " [حديث ضعيف رواه الدارقطنى والديلمى عن أبى هريرة] وكرر الوصاية بها أن " اتَّقُوا اللهَ فِي هذه البهائمِ المُعْجَمَةِ : فَاركَبوها صَالِحة، وَكُلُوهَا صالحة " [صحيح أبو داود]

وقال : " غُفِرَ لامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ (فاجرة) مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ (بئر) يَلْهَثُ قَالَ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ فَنَزَعَتْ خُفَّهَا فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا فَنَزَعَتْ لَهُ مِنْ الْمَاءِ فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ " [صحيح البخاري] وقال في هذا المعنى : " دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ (حشرات) الأَرْضِ " [متفق عليه] .

بل شمل عطفه الأحياء والجماد كأنه من الأحياء ، فكانت له قصعه (إناء) يقال لها الغراء ، وكان له سيف محلى يسمى ذا الفقار ، وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى ذات الفضول وكان له سرج يسمى الداج ، وبساط يسمى الكز ، وركوة (إناءٌ صغير من جِلْدٍ للشرب وغيره) تسمى الصادر ومرآة تسمى المدلة ، ومقراض (مقص) يسمى الجامع ، وقضيب (العود الذي يستاك به) يسمى الممشوق . [3]

---

(1)وعن أَبي سعيدٍ الخدري ، قَالَ : " كَانَ رسول الله ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ في خِدْرِهَا ، فَإِذَا رَأَى شَيْئاً يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ في وَجْهِه " [متفقٌ عَلَيْهِ]

(2) عَنْ حُمَيْدَةَ عَنْ كَبْشَةَ قَالَتْ : " رَأَيْتُ أَبَا قَتَادَةَ أَصْغَى الْإِنَاءَ لِلْهِرَّةِ فَشَرِبَتْ فَقَالَ أَتَعْجَبِينَ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَنَا إِنَّهَا لَيْسَتْ بِنَجَسٍ " [حديث صحيح رواه أحمد وغيره] .

(3) حديث موضوع رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس قال " كان لَهُ سَيْفٌ مُحلَّى قَائِمَتُهُ مِنْ فِضَّةٍ وَنَعْلُهُ مِنْ فِضَّةٍ وَفِيهِ حِلَقٌ مِنْ فِضَّةٍ وَكان يُسَمَّى ذَا الْفِقَارِ وَكَانَ لَهُ قَوْسٌ يُسَمَّى ذَا السَّدَادِ وَكَانَ لَهُ كِنَانَةٌ تُسَمَّى ذَا الجُمْعِ وَكَانَ لَهُ دِرْعٌ مُوَشَّحَةٌ بِنُحَاسٍ تُسَمَّى ذَاتَ الْفُضُولِ وَكَانَ =

وفي تسمية تلك الأشياء بالأسماء معنى الألفة التي جعلها أشبه بالأحباء المعروفين ممن لهم السمات والعناوين ، وكأن لها شخصية مقربة تميزها بين مثيلاتها ، كما يتميز الأحباء بالوجوه والملامح والألقاب .

هذه العاطفة الإنسانية التي اتسعت حتى شملت كل ما أحاطت به وأحاط بها كان معها ذوق سليم يشبهها رفعة ونبلاً ويتمثل في رعاية شعور الناس أتم رعاية ." كانَ إِذَا لَقِيَهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَامَ مَعَهُ قامَ مَعَهُ فَلَمْ يَنْصَرِفْ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَنْصَرِفُ عَنْهُ ، وَإِذَا لَقِيَهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَتَنَاوَلَ يَدَهُ نَاوَلَهُ إِيَّاهَا فَلَمْ يَنْزِعْ يَدَهُ مِنْهُ حتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْهُ ، وَإِذَا لَقِيَ أَحَداً مِنْ أَصْحَابِهِ فَتَنَالَ أُذُنَهُ نَاوَلَهُ إِيَّاهَا ثُمَّ لَمْ يَنْزِعْهَا حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَنْزِعُهَا عَنْهُ " [صحيح رواه ابن سعد]

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا وَدَّعَ رَجُلا أَخَذَ بِيَدِهِ فَلا يَدَعُهَا حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ يَدَعُ يَدَ النَّبِيِّ ﷺ وَيَقُولُ اسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَآخِرَ عَمَلِكَ " [صحيح الجامع الصغير]

" كانَ ﷺ أَرْحَمَ النَّاسِ بِالصِّبْيَانِ وَالْعِيَالِ " [صحيح ابن عساكر]

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلُقِّيَ بِصِبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ " [صحيح مسلم]

لَهُ حَرْبَةٌ تُسَمَّى النَّبْعَاءَ وَكَانَ لَهُ مجنٌّ يُسَمَّى الدَّقْنَ وَكَانَ لَهُ فَرَسٌ أَشْقَرُ يُسَمَّى المُرْتَجِزَ وَكان لَهُ فَرَسٌ أَدْهَمُ يُسَمَّى السَّكْبَ وَكان لَهُ سَرْجٌ يُسَمَّى الدَّاجَ وَكان لَهُ بَغلةٌ شَهْبَاءُ تُسَمَّى الدُّلْدُلَ وَكان لَهُ نَاقَةٌ تُسَمَّى الْقَصْوَاءَ وَكَان لَهُ حِمَارٌ يُسَمَّى يَعْفُورَ وَكان لَهُ بِسَاطٌ يُسَمَّى الْكَزَّ وَكَانَ لَهُ عَنَزَةٌ تُسَمَّى النَّمِرَ وَكان لَهُ رَكْوَةٌ تُسَمَّى الصَّادِرَ وَكان لَهُ مِرْآةٌ تُسَمَّى المُدِلَّةَ وَكانَ لَهُ مِقْرَاضٌ يُسَمَّى الجَامِعَ وَكان لَهُ قَضِيبٌ شَوحَظٌ يُسَمَّى المَمْشُوقَ " قال الحافظ العراقي : " في الحديث غرة الدمشقي نسب إلى وضع الحديث ، وقال الألباني : حديث موضوع ؛ علي بن عروة ؛ يضع الحديث . ومع أن الحديث موضوع إلا أن هذا لا ينفي تسمية النبي لبعض ما يستخدم من أدوات أو يركب من دواب بأسماء .

" كان ﷺ أصبر الناس على أقذار الناس " [حديث مرسل ضعيف رواه ابن سعد]

يحفظ غيابهم كما يحفظ حضورهم ويقول لأصحابه : " مَنِ اطَّلَعَ فِي كِتَابِ أَخِيهِ بِغَيْرِ أَمْرِهِ فَكَأَنَّمَا اطَّلَعَ فِي النَّارِ (حديث ضعيف جداً رواه الطبرانى عن ابن عباس)

ومع العاطفة الإنسانية والذوق السليم والأدب الكريم هيئة جميلة ونظافة بالغة وحرص على أن يراه الناس في أجمل صورة ، ومع هذا كله أمانة يثق بها العدو فما بال الصديق ؟ ويكفيك من ثقة الناس به ما أودعوه من أمانات وهم يعادونه فلم يخرج للهجرة وهو مهدد حتى رد الأمانات إلى أصحابها ، وقد يكون في ردها ما ينبههم إلى خروجه ويصعب عليه طريق النجاة [1] وهذا مع اشتهاره الأمانة في صباه ، حتى سمي بالأمين قبل أن يبعث برسالة السماء التي يجب أن يحمل صاحبها هذه الصفات.

كل هذه المزايا النفسية ، بل بعض هذه المزايا النفسية ، جدير أن يتم لصاحبه أداء الصداقة أوفى تمام ،وأن يجعله محباً لمن حوله مستحقاً منهم بأحسن حب وولاء.

لم يعرف في تاريخ العظمة – لا بين الأنبياء ولا غير الأنبياء – إنسان فاز بنخبة من الصداقات على اختلاف المنازل والبيئات والأمزجة والأجناس كالتي فاز بها محمد ﷺ ولم يُعْرف عن إنسان أنه أحيط من قلوب الضعفاء والأقوياء بما يشبه الحب الذي أحيط به هذا القلب الكبير .

---

(1) لم يرد النبي ﷺ الودائع إلى أهلها بنفسه كما زعم العقاد إنما أمر علياً بن أبي طالب أن يتخلف عنه بمكة لردها عنه كما أخبر كتَّاب السيرة ، وكما جاء في الأحاديث الشريفة فعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ، عَنْ عَائِشَةَ فِي هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ " وَأَمَرَ تَعْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا ، أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنْهُ بِمَكَّةَ ، حَتَّى يُؤَدِّيَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْوَدَائِعَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ لِلنَّاسِ. " [البيهقي: السنن الكبرى ، وابن كثير: البداية والنهاية ، والطبري: تاريخ الأمم والملوك] وهذا حتى لا تعلم قريش بعزمه على الهجرة .

وسبق أن ذكرنا قصة زيد بن ثابت الذي خُطفَ من أهله وهو صغير ، ثم اهتدى إليه أبوه ، واهتدى هو إلي أبيه على لهفة الشوق بعد يأس طويل ، فلما وَجَبَ أن يختار الرجوع إلى أهله ، وبين البقاء مع سيده " محمد " اختار البقاء مع السيد على الرجعة مع الوالد ؛ فقد شق عليه يبتعد عن ذلك القلب الذي غمره بحبه ومواساته ، وهو ضعيف شريد لا يرى أهله ولا يدري من هم .

وكان من لازموا النبي ﷺ في الدنيا يطمعون في ملازمته في الآخرة . فقد ضعف مولاه " ثوبان " وضعف جسمه وألح عليه الحزن في ليله ونهاره، فلما سأله الرسول ﷺ عن سبب حزنه وضعفه قال في طهارة الأبرار: " إني إذا لم أرك اشتقتك واستوحشتك وحشة عظيمة، فذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك لأني أن دخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين فلا أراك» ورويت هذه القصة فى أسباب نزول الآية الكريمة : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩] (١)

وأدرك الموت بلالاً (ابن رباح) فأحاط به أهله يصيحون وا كرباه وهو يجيبهم: "واطَرَبَاهُ غَداً أَلْقَى الأَحبة مُحَمّدًا ﷺ وَصَحْبَهُ " [ضعيف منقطع ابن أبي الدنيا]

---

(1) روى الكلبي : " كان ثَوْبَانُ مَوْلَى رسولِ اللهِ ﷺ شديدَ الحُبِّ له ، قليلَ الصبرِ عنه ، فأتاه ذاتَ يومٍ وقد تَغَيَّرَ لونُه ، يُعْرَفُ الحُزْنُ في وجهِه ، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ : ما غَيَّرَ لَوْنَكَ ؟ فقال : يا رسولَ اللهِ ، ما بي مَرَضٌ ولا وَجَعٌ ؛ غيرَ أني إذا لم أَرَكَ اسْتَوْحَشْتُ وَحْشَةً شديدةً حتى ألقاك ، ثم إني إذا ذَكَرْتُ الآخِرَةَ أخافُ أَلَّا أراكَ لأنكَ تُرْفَعُ إلى عِلِّيِّينَ مع النَّبِيِّينَ ؛ وإني إن دَخَلْتُ الجنةَ كنتُ في منزلةٍ أَدْنَى من منزلتِكَ ، وإن لم أَدْخُلْها لم أَرَكَ أبدًا ، فنزل قولُه تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [قال الألباني : مع إعضال الحديث فإن الكلبي كذاب: لكن من حديث عائشة مختصرا ليس فيه قول: ما غير لونك وقال المقدسي: لا أرى بإسناده بأساً وله شاهد وآخر من مرسل سعيد بن جبير]

قد قصدنا مما سبق بيان حب الصداقة بين الإنسان والإنسان لأننا لم نقصد حب المؤمن لنبيه في هذا الباب . (1)

أما عن حب المسلمين والمسلمات للنبي محمد ﷺ فقد ملأ قلوبهم فكانت المرأة تسمع أخبار المعركة فيبلغها خبر موت أقرب أهلها فلا تزيد عن قولها : " إنا لله وإنا إليه راجعون " ثم تسأل عن النبي ﷺ وتهتم بسلامته قبل اهتمامها بسلامة الأخوة وبني الأعمام ، وفي هذا الباب قصدنا محبة الصداقة لأنها هي المحبة التي جعلت كثيراً من الناس يؤمنون بمحمد ﷺ لمحبتهم له واطمئنانهم إليه ، فكانت سابقة في قلوبهم وأرواحهم لحب العقيدة والإيمان .

عظمة العظمات

إن عطف العظيم على الصغير حتى يستحق منه هذا الحب لفضيلة يشرف بها مقام العظيم في نظر الناس . ولكن قد يقال : إن استحقاق العظيم أن يحبه العظماء لأشرف من ذلك رتبة ودليل على حظه العظيم من فضائل التفوق . وهذا صحيح لا شك فيه .

وهنا أيضاً قد تمت لمحمد معجزته التي لن يشابهه فيها أحد من أصحاب الصداقات النادرة .

فأحاطت به نخبة من أصحاب المكانة الكبيرة ، تجمع بين عظمة الحسب وعظمة الثروة وعظمة الرأي ، وعظمة الهمة ، وكل منهم ذو شأن في عظمته تقوم عليه دولة

---

(1) هذا لا ينطبق إلا على قصة زيد بن حارثة لأنها وقعت قبل بعثته ﷺ أما قصة ثوبان ، وبلال فإن مصدر حب هذين الصحابيين لمحمد ﷺ لكونه نبي مرسل من عند الله أدبه ربه فأحسن تأديبه وجعله على خلق عظيم لا لكونه إنسان فاضل كريم فحسب .

وتنهض به أمه ، كما أثبت التاريخ من سير أبي بكر ، وعمر ، وخالد ، وأسامة ، وابن العاص ، والزبير ، وطلحة ، وسائر الصحابة الأولين . وربما عظم الرجل في مزية من المزايا ، فأحاط به الأصدقاء والمريديون من النابغين في تلك المزية ، كما أحاط الحكماء بسقراط والقادة بنابليون .

بل ربما أحاط الصالحون بالنبي العظيم كما أحاط الحواريون بالمسيح عليه السلام وكلهم من أصل واحد ، وبيئة متقاربة .

أما العظمات فهي التي تلك التي تجذب إليها الأصحاب النابغين من كل أصل وكل هيئة ، وهي التي يتقابل في حبها رجال بينهم مثل ما بين أبي بكر وعلي ، وبين عمر وعثمان ، وبين خالد ومعاذ ، وبين أسامة وابن العاص : كلهم عظيم ، وكلهم مع ذلك مخالف لغيره في وصف العظمة .

تلك هي العظمة التي اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها ، حتى تجمع بين الشدة والحلم، والحيلة والصراحة ، والذكاء والاجتهاد ، وخبرة الشيوخ وحمية الشباب تلك هي بلا ريب عظمة العظمات ، ومعجزة الإعجاز في الصدقات التي استحقها محمد ﷺ بنفسه الغنية بالحب ، حتى أعطت كل محب لها كفاء ما يعطيها : بمودة وصفاء بصفاء ، وعليها المزيد من فضل التفاوت في الأقدار .لقد كان صاحب الفضل على أصدقائه جميعاً بما هداهم إليه من نور العقل ونور البصيرة ، وهما أشرف من نور البصر ؛ لأن البصر نعمة يشترك فيها الإنسان والحيوان والطير ، ونور العقل ونور البصيرة نعمتان يختص بهما الإنسان ، ومع ذلك يذكر فضلهم ويشيد بذكرهم كما قال عن أبي بكر : " مَا أَحَدٌ أَعْظَمَ عِنْدِي يَداً مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ وَأَنْكَحَنِي ابْنَتَهُ " [حديث ضعيف رواه الطبراني] وكما قال عن أبي بكر وعمر : أبو بكرٍ وعمرُ

من الدِّينِ بمنزلةِ السَّمعِ والبصرِ " [ضعيف الجامع الصغير] (١) كما قال عن علي : "عليٌّ أخي في الدنيا والآخرةِ " [حديث ضعيف رواه الطبراني] وكما قال عن بعض أصحابه : إنَّ اللهَ أمرني بحُبِّ أربعةٍ، وأخبرني أنهُ يُحبُّهم، قيل : سمِّهِم لنا ، قال : عليٌّ منهم . يقول ذلك ثلاثًا . وأبو ذَرٍّ، والمِقدادُ، وسَلمانُ " [ضعيف الترمذي] وكما قال عن الأنصار جميعاً وهو في مرض الموت "اسْتَوْصُوا بِالأَنْصَارِ خَيْرًا " [حديث صحيح رواه أحمد وغيره] ، " الأَنْصَارُ عَيْبَتِي (صحابتي الذين أثق بهم وأعتمد عليهم) الَّتِي أَوَيْتُ إِلَيْهَا ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ ، وَاعْفُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ " [حديث صحيح رواه أحمد] وغير ذلك كثير عن الصحابة جميعهم وعن بعضهم مذكورين بأسمائهم .

على أننا نلمس دلائل عطف النبي الإنساني الشامل في معاملته لأعدائه وكارهيه فضلا عن معاملته لأحبائه ، ومن ليس بينهم وبينه عداء ولا حب .

فما ثأر من أحد أساء إليه في شخصه وقد عفا عن رجل همَّ بقتله وهو نائم ورفع السيف ليهوى به فسقط من يده على كُرْه منه (٢) وما حارب أبداً أحداً كان يمكن أن يسالمه ويتقى شره.

ومعاملته لعبد الله بن أبى الذي كان المسلمون يسمونه رأس النفاق مثل من أمثلة الصفح الجميل فقد عاهد وغدر ثم عاهد وغدر، وعاش ما عاش يكيد للنبي ﷺ في سره

---

(1) هناك أحاديث كثيرة صحيحة قالها رسول الله في فضل أبي بكر وعمر منها قوله : " لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلا وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي " [متفق عليه]" قَدْ كَانَ يَكُونُ فِى الأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِى أُمَّتِى مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ " [متفق عليه]

(2) نص الحديث هو : عن جابر بن عبد الله قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " إِنَّ رَجُلاً أَتَانِى وَأَنَا نَائِمٌ فَأَخَذَ السَّيْفَ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِى فَلَمْ أَشْعُرْ إِلاَّ وَالسَّيْفُ صَلْتًا فِى يَدِهِ فَقَالَ لِى مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّى قَالَ قُلْتُ اللَّهُ. ثُمَّ قَالَ فِى الثَّانِيَةِ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّى قَالَ قُلْتُ اللَّهُ . قَالَ فَشَامَ السَّيْفَ (أغمده) فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ ». ثُمَّ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " [متفق عليه]

ويساعد عليه أعداءه، وشاع أن النبي ﷺ قضى بقتله فتقدم ابنه وقال له : " يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه.. فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبى يمشى في الناس فأقتله فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار" فأبى النبي ﷺ أن يقتله وآثر الرفق به [1] وكافأ ﷺ الولد خير مكافأة على إخلاص نيته وإيثاره البر بدينه على البر بأبيه.

فأعطاه قميصه الطاهر يكفن به أباه وصلى عليه ميتاً ووقف على قبره حتى فرغ من دفنه، وقد حاول عمر أن يثنيه عن الصلاة على ذلك العدو الذي آذاه جهد الإيذاء فذكر الآية: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٨٠] فقال: " لو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له زدت ." [2]

---

(1) حديث ضعيف مرسل رواه ابن إسحاق ، والرواية الصحيحة لهذا الحديث هي : عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ قال : كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلا مِنْ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَسَمَّعَهَا اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ قَالَ مَا هَذَا فَقَالُوا كَسَعَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلا مِنْ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ قَالَ جَابِرٌ وَكَانَتْ الأَنْصَارُ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَ ثُمَّ كَثُرَ الْمُهَاجِرُونَ بَعْدُ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ أَوَقَدْ فَعَلُوا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ دَعْهُ لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ " [متفق عليه] .

(2) عن الحديث هو : " عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُ قَمِيصَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يُكَفِّنَهُ فِيهِ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي عَلَيْهِ فَأَخَذَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِثَوْبِهِ فَقَالَ تُصَلِّي عَلَيْهِ وَهُوَ مُنَافِقٌ وَقَدْ نَهَاكَ اللَّهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ قَالَ إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللَّهُ أَوْ أَخْبَرَنِي اللَّهُ فَقَالَ : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} فَقَالَ سَأَزِيدُهُ عَلَى سَبْعِينَ قَالَ فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [رواه البخاري]

هذه النفس المطبوعة على الصداقة والرحمة والسماحة ما أعجب اتهامها بالقسوة على ألسنة بعض المؤرخين الأوربيين !

ما أعجبهم إذ يذكرون العقوبة وينسون الذنب الذي استوجب العقوبة .

وأي ذنب ؟ ذنب لو قوبل به محمد ﷺ لأراق فيها أنهاراً من الدماء وله مبرره من سلطان الدنيا والآخرة . فلا نذكر استهزاء المشركين به وإلقاءهم عليه القذر والحجارة وإخراجهم المسلمين من ديارهم إلى أقصى الديار ، ولا نذكر العناد والاستثارة لغير جريمة إلا أنهم دعوا إلى عبادة الله ، والتحلي بمكارم الأخلاق وترك عبادة الأصنام ، وترك الرذيلة .

ونذكر شيئاً من هذا فهو أطول من أن يحصيه هذا الكتاب ، ولكننا نذكر حادثاً واحداً تجمع فيه اللؤم ما تفرق في كثير غيره ، وذلك حادث الرسل الأربعين – وقيل : السبعين – الذين قتلوا في بئر معونة ولا ذنب لهم إلا أنهم ذهبوا تلبية لدعوة الداعين ليعلموا من يريد علم القرآن الكريم والدين [1] .

فماذا كانت دول الحضارة صانعة بالقاتلين الغادرين ؟!

لو كان هؤلاء الأربعون أو السبعون مبشرين بالدين المسيحي ، قتلوا في قبيلة من الهمج الذين يأكلون الآدميين ومن حقهم أن يعذروا كما تعذر الوحوش ، إن بقي من أبناء القبيلة من يروي أنباء المقتلة ، فقد يقال إن القوم لرحماء في العقاب .

ولم يكن حادث بئر معونة بالحادث الوحيد من حوادث الغدر بالرسل الأبرياء فقد غدرت قبيلة هذيل بالرسل الستة الذين ذهبوا إليهم ليعلموا من شاء أن يتعلم أحكام الدين وهو آمن في داره لا إكراه له فقتلوا جميعاً عن عَاصِم بْن عُمَرَ ، قَالَ " بَعَثَ

---

(1) نص الحديث هو : عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَاهُ رِعْلٌ وَذَكْوَانُ وَعُصَيَّةُ وَبَنُو لَحْيَانَ فَزَعَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَسْلَمُوا وَاسْتَمَدُّوهُ عَلَى قَوْمِهِمْ فَأَمَدَّهُمْ النَّبِيُّ ﷺ بِسَبْعِينَ مِنْ الْأَنْصَارِ قَالَ أَنَسٌ كُنَّا نُسَمِّيهِمْ الْقُرَّاءَ يَحْطِبُونَ بِالنَّهَارِ وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ فَانْطَلَقُوا بِهِمْ حَتَّى بَلَغُوا بِئْرَ مَعُونَةَ غَدَرُوا بِهِمْ وَقَتَلُوهُمْ فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَبَنِي لَحْيَانَ " [متفق عليه]

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِهِ ، مِنْهُمْ زَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ ، أَخُو بَنِي بَيَاضَةَ بْنِ عَامِرٍ ، فَأَمَّا زَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ ، فَأُسِرَ ، فَقُدِمَ بِهِ مَكَّةَ ، فَبَعَثَ بِهِ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ، مَعَ مَوْلًى لَهُ، يُقَالُ لَهُ : نِسْطَاسٌ ، إِلَى التَّنْعِيمِ ، فَأَخْرَجُوهُ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، فِيهِمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ ، حِينَ قَدِمَ لِيُقْتَلَ : نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ يَا زَيْدُ ، أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا عِنْدَنَا الآنَ بِمَكَانِكَ ، يُضْرَبُ عُنُقُهُ ، وَأَنَّكَ فِي أَهْلِكَ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ مُحَمَّدًا ﷺ الآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ ، تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ، وَأَنِّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ ، أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ثُمَّ قَتَلَهُ نِسْطَاسٌ. " [إسناده حسن] من موقف كهذا نعلم مدى ما استحقه محمد ﷺ من حب الأصدقاء ومدى ما استحقه أعداؤه من جزاء، فقد أحب أصدقاءه وأحبوه ؛ لأنه طبع على الصداقة ، أما أعداؤه فقد لقوا جزاءهم ؛ لأنهم هم طبعوا على العداء والاعتداء .

***